مركز حمورابي

اختبار التحمل: هل يستطيع نظام مضطرب الصمود أمام قائد مثير للاضطراب؟

اختبار التحمل: هل يستطيع نظام مضطرب الصمود أمام قائد مثير للاضطراب؟

بقلم: مارغريت ماكميلان
ترجمة: صفا مهدي عسكر

مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية

20 كانون الثاني 2025

حقوق النشر محفوظة لمركز حمورابي
للبحوث والدراسات الإستراتيجية

لا يجوز نشر أي من هذه الابحاث والدراسات والمقالات الا بموافقة المركز، ويجوز الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا، وليس من الضروري ان تمثل المقالات والابحاث والدراسات والترجمات المنشورة وجهة نظر المركز وانما تمثل وجهة نظر الباحث

يُعرف المؤرخون بتحفّظهم إزاء التنبؤ بالمستقبل ليس فقط بسبب كثرة المتغيرات والتقلبات، بل لأن استيعاب أهمية الأحداث في حين وقوعها غالبًا ما يكون صعبًا، فعندما سقط جدار برلين عام 1989، أدرك الناس فورًا أن حقبة جديدة قد بدأت. ولكن قلة منهم تنبأت بأن اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانز فرديناند في سراييفو عام 1914 سيؤدي إلى اندلاع حرب مرعبة شملت القارة الأوروبية وأسفرت عن مقتل أكثر من 16 مليون شخص. وحتى الخبراء التقنيون لم يدركوا أهمية الآيفون عندما كشف عنه ستيف جوبز، الرئيس التنفيذي لشركة آبل، عام 2007.

منذ فوز دونالد ترامب في الانتخابات الرئاسية الأمريكية في تشرين الثاني الماضي، يصعب تجاهل ثلاثية الخيال العلمي الكلاسيكية "المؤسسة" لإسحاق عظيموف، التي صدرت في نهاية الحرب العالمية الثانية. في هذه السلسلة ينجح عالم رياضيات عبقري في ترويض مستقبل البشرية باستخدام قوانين إحصائية للتحكم بالسلوك البشري ومنع الكوارث، مما يضمن حكمًا مستقرًا وخيّرًا لعدة قرون. لكن النظام المثالي يتحطم مع ظهور "البغل"، وهو شخصية متحوّلة تتمتع بقدرات استثنائية وملايين من الأتباع المخلصين، يهدد بإعادة الاضطراب وقلب النظام.

فهل يمكن اعتبار ترامب "البغل" في عصرنا؟ يرى نفسه مدمّرًا للتقاليد ومناهضًا للقواعد وكاسرًا للمؤسسات، كما صعد إلى السلطة مستندًا إلى قاعدة جماهيرية عريضة، مما يثير التساؤلات حول ما إذا كان قادرًا على تغيير مجرى الأحداث وإعادة تشكيل الولايات المتحدة والعالم. وعلى الرغم من أن الانتخابات الرئاسية جرت بسلاسة، مما أثار ارتياح البعض إلا أن وعود ترامب وأنصاره تشير إلى احتمال إحداث تغييرات جذرية في نظام الحكم الأمريكي، بما في ذلك إعادة النظر في سيادة القانون.

لقد هدد ترامب بإلغاء وكالات حكومية مستقلة لا توافقه الرأي وتحويل بعضها إلى أدوات تخدم مصالحه الشخصية، كما لوّح بإمكانية تسييس الجيش وتجاوز الكونغرس بتعيينات مؤقتة إذا رفض المصادقة على مرشحيه، ولم يتردد في انتقاد حلفاء الولايات المتحدة علنًا بل وأساء إليهم أمام خصومهم. وهو يرى أن القانون الدولي والمؤسسات مثل الأمم المتحدة ومنظمة التجارة العالمية ومنظمة الصحة العالمية لا تخدم مصالح الولايات المتحدة، حتى أنه قلل من أهمية تحالفات استراتيجية مثل الناتو.

---

* Margaret MacMillan, can a Troubled Order Survive a Disruptive Leader? FOREIGN AFFAIRS, January 7, 2025.

كان إسحاق عظيموف عالمًا لكنه تناول تساؤلًا محوريًا حول قدرة الأفراد على تغيير مسار التاريخ، خصوصًا أولئك الذين يمتلكون القوة والدافع لتدمير الأنظمة القائمة، كما طرح سؤالًا آخر مرتبطًا: هل كان النظام القديم محكومًا بالسقوط أصلًا؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يصبح هؤلاء الأفراد مجرد أدوات لقوى أكبر تُشكّلهم؟ الإجابة قد تكون في المنتصف. فمن غير المحتمل أن يتمكن نابليون بونابرت ذو الخلفية المتواضعة، من الوصول إلى السلطة دون الاضطرابات التي أحدثتها الثورة الفرنسية عام 1789. وبالمثل ربما لم يكن فلاديمير بوتين قادرًا على الاستيلاء على السلطة لو كان النظام السياسي الناشئ في روسيا ما بعد الاتحاد السوفييتي أكثر استقرارًا، ومثل شي جين بينغ في الصين، بنى بوتين حكمًا شخصيًا أعاد تشكيل بلاده حول ذاته، مما أدى إلى تغييرات كبرى في النظام العالمي.

مع محاولة المراقبين فهم ما قد تعنيه ولاية ترامب الثانية للولايات المتحدة والعالم، قد يكون السؤال الأهم هو: إلى أي مدى يمكن للديمقراطية الأمريكية والنظام الدولي الصمود أمام الضغوط؟ أثناء الكساد الكبير، صمدت الأنظمة الديمقراطية في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، بينما انهارت في ألمانيا واليابان، مما أدى إلى اندلاع أعنف صراع عسكري في العصر الحديث. اليوم، تمتد جذور الديمقراطية الأمريكية عميقًا، كما يحدّ توزيع السلطة بين الحكومة الفيدرالية والولايات من تأثير أي إدارة واحدة.

لكن دروس التاريخ تذكرنا بأن قوة المؤسسات لا يمكن قياسها إلا عند اختبارها فعليًا، وينطبق هذا أيضًا على النظام الدولي، وعلى الرغم من أن النظام الحالي يبدو أكثر متانة مقارنة بنظيره في ثلاثينيات القرن الماضي فإن بعض الأعراف التي كانت تُعتبر مقدسة قد تم انتهاكها في السنوات الأخيرة. حتى الآن من غير الواضح ما إذا كان ترامب سيتمكن من تحقيق هدفه المعلن بإحداث تغييرات جذرية وإطلاق عصر جديد، أو ما إذا كان سيجد نفسه مقيدًا بالقوانين والهياكل الحكومية الحالية أو بالمعارضة السياسية الداخلية أو بالقوى الخارجية، ما سيحدث في النهاية سيعتمد إلى حد كبير على توازن القوى المحيطة به بقدر ما يعتمد على كيفية استخدامه للسلطة.

أوهام القطيعة

لطالما انقسم الباحثون حول السؤال المحوري: هل يصنع القادة التاريخ أم يصنعهم التاريخ؟ يميل علماء السياسة إلى تجنب التركيز على الأفراد، مفضلين دراسة الظواهر القابلة للقياس والتجميع. ولذلك فإن الدراسات المتعلقة بالقيادة والقادة قليلة نسبيًا على الرغم من الاهتمام العام المتزايد والنقاشات المحتدمة حول دوافع وتصرفات أصحاب السلطة، أما المؤرخون فيجدون سهولة أكبر في تناول الشخصيات المؤثرة، كما فعل إيان كيرشو في سيرته المميزة عن أدولف هتلر وستيفن كوتكين في عمله عن جوزيف ستالين، ومع ذلك يظل التحدي المتمثل في الموازنة بين تأثير الأفراد والقوى الاجتماعية والسياسية المحيطة بهم حاضرًا دائمًا في عمل المؤرخين. لا شك أن القادة هم نتاج أزمنتهم، سواء في أفكارهم وقيمهم أو في رؤيتهم لكيفية عمل العالم، لكن

القادة الذين يتمتعون بسلطات استثنائية – سياسية أو أيديولوجية أو مالية – يمتلكون القدرة على توجيه مجتمعاتهم، وأحيانًا البشرية جمعاء في مسارات محددة.

تؤثر التجارب الشخصية للقادة على طريقة رؤيتهم للعالم وصنع قراراتهم، فعلى سبيل المثال عانى فلاديمير بوتين من الإذلال في نهاية الحرب الباردة، عندما انتقل من كونه ضابط استخبارات في ألمانيا الشرقية يمثل الإمبراطورية السوفييتية إلى شخص بالكاد يستطيع تأمين لقمة العيش. لقد شهد بوتين انهيار الاتحاد السوفييتي وما تبعه من استقلال جمهورياته السابقة مثل أوكرانيا – وهي أحداث شكلت صدمة عميقة غذت هوسه باستعادة ما يعتبره أراضي روسية مفقودة وإعادة بلاده إلى عظمتها. وتلعب الشخصية دورًا حاسمًا أيضًا، فمع بوتين، لا يمكن تجاهل تصميمه ودهائه وإيمانه بأنه وريث مباشر لقادة روس عظماء مثل بطرس الأكبر وستالين، الذين بنوا إمبراطوريات ضخمة وأكسبوا روسيا هيبة ومهابة بين جيرانها.

ذلك الاعتقاد بأن القائد مختار من قِبل القدر أو التاريخ أو الإله ألهم القادة السياسيين والمفكرين والجنرالات عبر العصور، ولكنه جعلهم أيضًا يرفضون النصيحة أو يعجزون عن الاعتراف بأخطائهم وقد أدى ذلك أحيانًا إلى سياسات كارثية، هتلر في سعيه لتحقيق هيمنة الآريين دمّر ألمانيا، وماو تسي تونغ قتل عشرات الملايين من شعبه في سبيل تحقيق رؤاه الطوباوية.

لو أُزيلت شخصيات بعينها من تاريخ القرن العشرين الدموي فلن يكون من الممكن فهم ما حدث بشكل كامل، على سبيل المثال لو قُتل هتلر في خنادق الحرب العالمية الأولى، فمن غير المحتمل أن يظهر قومي ألماني آخر يمتلك المزيج ذاته من الأيديولوجيا والاعتقاد الجازم بصواب رؤيته ليحقق تأثيرًا مشابهًا. ولو توفي ونستون تشرشل عندما صدمته سيارة في نيويورك عام 1931، فمن المشكوك فيه أن يظهر زعيم آخر في لندن عام 1940 يمتلك العزم ذاته على المقاومة بعد سقوط فرنسا، فمن الصعب تخيل أن نيفيل تشامبرلين أو خليفته المحتمل اللورد هاليفاكس كانا ليقودا بريطانيا في تلك الظروف بالتصميم نفسه. وفي الاتحاد السوفييتي، أظهرت ملاحظات كوتكين حول المزارع الجماعية أن احتمالية حدوث "التجميع القسري الشامل" كانت ستقترب من الصفر إذا توفي ستالين في وقت مبكر.

أما في حالة ترامب فقد أعلن عن خطط مثيرة للجدل مثل ترحيل 11 مليون مهاجر غير شرعي، وإضعاف الخدمة المدنية وفرض تعريفات جمركية مرتفعة فضلاً عن انتقاد أو التخلي عن الحلفاء التقليديين للولايات المتحدة، ومع ذلك لا يزال من غير الواضح مدى جديته في تنفيذ هذه التهديدات. هل كانت تصريحاته مجرد استفزازات لتحدي خصومه، أم أنها جزء من رؤية متماسكة تهدف إلى إعادة تشكيل الولايات المتحدة في عالم منقسم إلى كتل نفوذ متنافسة؟

إذا نفذ المقربون منه رؤيتهم فقد يكون الاحتمال الثاني أقرب إلى الواقع، ولكن من المؤكد أن هجوم ترامب على الوضع الراهن وجد صدى واسعًا بين عدد كبير من الأمريكيين، كما أن تأثيره وصل إلى أنصاره في الخارج. سواء قصد ترامب ذلك أم لا، قد يتمثل إرثه في تغييرات دائمة في الطريقة التي يعمل بها العالم.

تحطيم الثقة

الاعتراف بأن بعض القادة قادرون على تغيير مجرى التاريخ لا يعني أنهم يفعلون ذلك بمفردهم، بل غالبًا ما يستفيدون من التيارات المتغيرة داخل المجتمعات، والتحولات السياسية والاجتماعية الكبرى عادةً ما تحدث عندما تفقد المؤسسات سلطتها بسبب تراجع إيمان الناس بشرعيتها. على سبيل المثال في بداية القرن السادس عشر، بدت الكنيسة الكاثوليكية مؤسسة غنية وقوية قادرة على الهيمنة على المسيحية لقرون قادمة، لكن عمليًا كانت تفقد احتكارها للمعرفة بسبب اختراع الطباعة وانتشار التعليم، بالإضافة إلى تراجع سلطتها الأخلاقية نتيجة الفساد المتزايد والواضح داخل هيكلها. وعندما كتب مارتن لوثر أطروحاته الشهيرة عام 1517، لإدانة ممارسة بيع صكوك الغفران، أطلق حركة أدت خلال العقود التالية إلى تغيير جذري في هياكل السلطة السياسية في أوروبا.

في الثورة الفرنسية واجه القادة نظامًا مترنحًا مثقلًا بالديون وغير محبوب ليس فقط من قبل الفئات الفقيرة التي عانت من عدم المساواة، بل أيضًا من الأرستقراطيين الذين استفادوا منه سابقًا، وبالمثل بحلول ثمانينيات القرن العشرين كان معظم العاملين داخل النظام السوفييتي قد فقدوا إيمانهم بالماركسية، رغم أن تحديد توقيت انهيار النظام كان صعبًا.

في الولايات المتحدة يعكس صعود دونالد ترامب حالة من السخط العام تجاه المؤسسات القائمة، وهو ما يبدو بعيدًا عن كونه مجرد لعبة سياسية عادية رغم الأداء الجيد للاقتصاد في عهد الرئيس جو بايدن، وانخفاض معدلات البطالة وإحراز تقدم في السيطرة على الحدود الجنوبية، فإن العديد من الناخبين كانت لديهم تصورات مختلفة. الأهم من ذلك أن الحكومة الفيدرالية كانت تُعتبر في أجزاء كبيرة من البلاد غير فعالة وفاسدة، أو حتى مستبدة، وتعتمد الديمقراطيات على الثقة وهذه الثقة كانت تتآكل، وكان ترامب بارعًا في التعبير عن مخاوف الأمريكيين واستيائهم.

استغلال السخط الشعبي في أوقات الأزمات للوصول إلى السلطة يتطلب مزيجًا من العبقرية والاستعداد لتجاهل الحكمة التقليدية والأعراف ففلاديمير لينين مؤسس الاتحاد السوفييتي، استفاد من ظروف زمانه ولكنه أيضًا صنع حظه الخاص باستخدامه شعارًا بسيطًا وفعّالًا: "السلام والخبز والأرض"، وتركيزه المطلق على تحقيق السلطة، تمكن حزبه البلشفي من كسب الدعم في المناطق الرئيسية من البلاد وفي تشرين الثاني 1917 استولى على السلطة مما أدى إلى تأثيرات طويلة الأمد على الاتحاد السوفييتي والعالم.

كذلك تمكن هتلر من إقناع عدد كافٍ من الألمان المؤثرين - بمن فيهم رجال الأعمال والقادة العسكريون وأفراد من دائرة الرئيس الألماني بول فون هيندنبورغ - بضرورة تعيينه مستشارًا في كانون الثاني 1933، وبعد حريق الرايخستاغ في الشهر التالي مُنح هتلر سلطات طارئة وسرعان ما قضى على ما تبقى من جمهورية فايمار، وكما فعل نابليون ولينين وخليفته ستالين أسس هتلر نظامًا جديدًا بقيم ومؤسسات وأوضاع جديدة للرابحين والخاسرين.

غالبًا ما يُرحب بمثل هؤلاء القادة باعتبارهم عوامل تغيير في ألمانيا، وفي أوائل الثلاثينيات كان العديد من الناس متعبين من العنف وعدم اليقين والاقتصاد المتدهور، وأملوا أن يقدم قائد قوي حلولًا جديدة وفعّالة تضمن مستقبلًا أفضل وأكثر استقرارًا. على الرغم من أن دولًا غربية مثل فرنسا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة ربما دعمت القوى الديمقراطية في ألمانيا أو حاولت احتواء النازيين بعد وصولهم إلى السلطة، إلا أن تأثير الكساد العظيم داخل هذه الدول وخوفها من انتشار الشيوعية وازدياد النزعة العسكرية اليابانية أضعف استجاباتها.

السؤال الملح اليوم هو ما إذا كان ترامب سيحترم حدودًا معينة في الداخل والخارج أم أنه واثقًا من قوته، على سبيل المثال رغم السلطات الاستثنائية التي تمتع بها ونستون تشرشل كرئيس وزراء زمن الحرب فإنه ظل يحترم البرلمان، وبعد انتهاء الحرب في أوروبا، وافق على حل مجلس العموم لإجراء انتخابات عامة.

وفي الولايات المتحدة عندما واجه الرئيس فرانكلين روزفلت معارضة المحكمة العليا للتشريعات المتعلقة بـ"الصفقة الجديدة"، فكر في إضافة قضاة مؤيدين له لكنه تراجع بعد اعتراض شعبي واسع، ومع ذلك قلة من القادة أبدوا هذا القدر من الاحترام للقيود المؤسسية. فقد دفع الروس ثمنًا باهظًا لقرار بوتين الخاطئ بغزو أوكرانيا، حيث يُقدر عدد الضحايا بأكثر من 700,000، ومع ذلك يبدو أنه غير مستعد لتغيير مساره.

كل شيء مُباح

قد يكون للطريقة التي يتعامل بها ترامب مع القواعد غير المكتوبة والافتراضات غير المعلنة دور حاسم في تحديد مستقبل النظام الدولي، ففي عام 1804 خالف نابليون الأعراف السائدة عندما اختطف دوق إنغيين أحد أبرز الشخصيات الملكية، من ولاية بادن الألمانية وأعدمه في فرنسا بعد محاكمة سريعة، وأثار هذا الفعل صدمة في معظم أنحاء أوروبا ولكنه ساعد في تعزيز سيطرة نابليون على فرنسا. وعلى نفس المنوال رفض لينين في الاتحاد السوفيتي الجديد الدبلوماسية التقليدية ورَوج للثورة العالمية، أما هتلر فقد قام بتحدي معاهدة فرساي التي فرضت على ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى وقام بكسر ما اعتبره "قيودها"، مثل إعادة التسلح في منطقة راينلاند وإنشاء القوة الجوية الألمانية، إن نجاحه في هذه التحركات شجع قوى أخرى مثل القادة العسكريين اليابانيين الذين واصلوا عدوانهم في الصين وموسوليني الذي غزا إثيوبيا.

اليوم يبدو أن النظام الدولي أقوى وأكثر مرونة مقارنة بالماضي، فبعد الحرب العالمية الثانية أسس الحلفاء المنتصرون مؤسسات جديدة مثل الأمم المتحدة والنظام النقدي الدولي في بريتون وودز، وذلك بهدف تجنب "آفة الحرب" ومعالجة أسبابه مثل الفقر. ورغم أن الحرب الباردة حالت دون التأسيس الكامل لهذا النظام، إلا أن التحالفين المتنافسين حلف الناتو وحلف وارسو، وجدا سبلًا للتعامل مع بعضهما البعض وتجنب نشوب حرب نووية شاملة. كما تم التوصل إلى معاهدات للحد من الأسلحة، بالإضافة إلى اتفاقات غير رسمية لتقليل

المخاطر الناتجة عن سوء الفهم الذي قد يؤدي إلى نشوب الحرب، ورغم التوترات السياسية لم يسعى أي من الطرفين إلى تغيير الوضع العسكري على الأرض.

مع نهاية الحرب الباردة تآكل جزء كبير من النظام الدولي ولكن بعض أجزائه بقيت حية، مثل الأمم المتحدة والمعاهدات التي تنظم مجالات متعددة مثل الطيران المدني والتجارة الدولية، ومن أبرز القواعد التي تم الالتزام بها بعد عام 1945، كانت الاتفاقات غير المعلنة التي تقضي بعدم استخدام القوة للاستيلاء على الأراضي كأساس للسيادة. لكن هذا الفهم تعرض للاختراق مؤخرًا مثلما حدث مع الاستيلاء على أجزاء من أوكرانيا من قبل روسيا، والاعتراف الأمريكي بمطالب (إسرائيل)** بالسيادة على هضبة الجولان التي انتُزعت من سوريا، ان القادة الذين يكسرون القواعد دون عقاب يمكن أن يشجعوا آخرين على اتباع نفس النهج. على سبيل المثال ألهمت "الديمقراطية غير الليبرالية" لرئيس وزراء المجر فيكتور أوربان العديد من أنصار ترامب في الولايات المتحدة، بما فيهم الاستراتيجي السياسي ستيف بانون ورجل الأعمال إيلون ماسك، كما أن الهجوم غير المبرر لروسيا على جيرانها السياديين قد يُشجع قادة آخرين مثل شي جين بينغ، الذي عبّر مرارًا عن رغبته في إعادة تايوان تحت حكم الصين. هكذا قد تنهار القواعد التي صمدت لعقود.

على الرغم من شكاوى الأمريكيين من دورهم كـ "شرطي العالم" فإن تبني سياسة انعزالية تحت حكم ترامب، أو حتى إمكانية انسحاب الولايات المتحدة من حلف الناتو، قد لا يجعل الولايات المتحدة أو بقية الدول أكثر أمانًا. في الواقع من المحتمل أن تؤدي الحروب التجارية مع العديد من الدول، بالإضافة إلى التوترات مع الصين، إلى تعزيز الخطر على النظام العالمي، علاوة على ذلك قد يؤدي صعود الحركات الوطنية اليمينية في أوروبا إلى تآكل الدعم للنظام الدولي الذي استفادت منه الولايات المتحدة.

من جهة أخرى يبقى التساؤل حول كيفية تعامل العالم مع قائد قد يكون أكثر تقلبًا وتجاهلاً للقواعد من سابقيه، وفي العلاقات الدولية خطر الأخطاء وسوء الفهم الذي قد يؤدي إلى اندلاع الحروب لا يزال قائمًا، بل قد يتزايد في ظل الظروف الحالية. حتى أثناء الانتخابات الأمريكية اختبر كيم جونغ أون زعيم كوريا الشمالية، صاروخًا باليستيًا عابرًا للقارات، وزاد تقاربه مع بوتين مما جعل النزاع في أوكرانيا يتحول إلى صراع دولي بعد أن قدمت كوريا الشمالية الدعم العسكري لروسيا. من جانب آخر أعلن بوتين عن عتبة أقل لاستخدام الأسلحة النووية واستخدم صواريخ فرط صوتية ضد كييف، ومع وصول ترامب إلى منصب الرئاسة فمن الصعب التنبؤ بما إذا كانت سياساته ستساهم في تهدئة الأوضاع الدولية أو في زيادة التوترات.

** لمقتضيات الأمانة العلمية، وضرورات الترجمة الدقيقة، تم الإبقاء على كلمة (إسرائيل)، وهو لا يعني اعتراف المركز بها، وما هو مكتوب يمثل راي وأفكار المؤلف.

مركز حمورابي للبحوث و الدراسات الاستراتيجية

أسس مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية في 25-4-2012 بمدينة بابل(الحلة)، كمركز علمي بحثي يمتد الى دراسة الموضوعات السياسية و المجتمعية بصورة علمية و استراتيجية، فضلاً عن التركيز على القضايا والظواهر الحادثة والمحتملة قي الشأن المحلي والأقليمي والدولي ، ويتعامل مع باحثين من مختلف التخصصات داخل العراق وخارجه، وتحتضن بغداد المقر الرئيسي للمركز.

www.hcrsiraq.net

07810234002

hcrsiraq@yahoo.com

t.me/hammurabicrss

مركز حمورابي للبحوث والدراسيات الاستراتيجية

hcrsiraq

العراق - بغداد- الكرادة